

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)

يتحدى الله في هذه الآية بعض الناس بتمني الموت، ويعلق على تمنيه الصدق في دعوى انحصار الدار الآخرة بالمحظى. ويبقى الموت وال موقف منه معياراً للصدق في دعوى الخلوص والإخلاص. ويبقى الموت هو السر الذي يستعصي على الإنسان فهمه، ويحار في سبيل الفرار منه، وما من فرار: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُذْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَنَحْنُ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»^(٢).

وتزداد العلاقة بالموت توتوراً وتعقيداً، عندما نلاحظ أنَّ الموت هو أحد منابع الدين والتدين عند بعض دارسي الأديان، وهو في الوقت عينه أحد أبواب الإلحاد ومنافذه عند آخرين ممن يرى في الموت شرًا، بل أعظم الشرور التي لا تتسمج مع وجود الله المطلق القدرة والعلم والعدل.

ويواصل الإنسان محاولاته لفهم الموت وتساعده على ذلك النصوص الدينية المستندة إلى الوحي الإلهي، منضماً إليه ما نسبت على ضفاف الفكر الديني من تأملات، وما فاضت به قريحة الفلسفة على اختلاف توجهاتهم ومساريهم. ولا بأس من الإشارة إلى بعض هذه المحاولات في هذه الافتتاحية عليها تلقي شيئاً من الضوء على موضوع العدد، قبل أن يدخل القارئ إلى محتوياته.

الموت في القرآن الكريم:

يذكر الله، سبحانه وتعالى، في كتابه الكريم الموت بأشكال مختلفة، وفي سياقات متعددة يحتاج حصرها واستعراضها جمِيعاً إلى مجالٍ أوسع مما نحن بصدده. فهو مرَّة يتحدى اليهود المُدعين خلوص الدار الآخرة لهم دون الناس بتمني الموت، كما في الآية المشار إليها مطلع هذه الكلمة. وتارة يقنع الإنسان ويدعوه إلى عدم تضييع الوقت بمحاولات الفرار من الموت الذي يطلب من يفرّ منه، فيدركه ولو كان في بروج مشيدة. وثالثة يعده مصيبة تنزل بالإنسان في قوله: «فَأَصَابَنَّكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ»^(۱)، ورابعة يعرضه لنا وكأنه ملازم لطبيعة الحياة الإنسانية لا فكاك منه، فلا توجد نفس لا تعain الموت أو يحل بساحتها: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»^(۲)، حتى لو كانت هذه النفس نفس النبي من الأنبياء: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَانِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ»^(۳) و«أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدًا إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ»^(۴)، بل يصيب الأرض التي تحتضن الإنسان: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا»^(۵). إلى غير ذلك مما اشتملت عليه آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع.

لماذا يخشى الإنسان الموت؟

لا شك في أن خشية الإنسان من الموت تستند إلى رؤية محددة إلى الموت والحياة؛ الأمر الذي يدعوه إلى التمسك بالأخريرة ومحاولة الفرار من الثانية، ولو بأشكال غير واقعية أحياناً. ومن هنا يبدو التساؤل عن صورة الموت وكيفية إدراك الإنسان له أمراً مجدياً.

وقد يبدأ أحد الشعراء:

تعددت الأسباب والموت واحد

من لم يمت بالسيف مات بغيره

وقد حاول بعضهم تعريف الموت فقال: «الموت هو الموت»، في إشارة إلى بساطة المفهوم ووحدة مدلوله عند جميع الناس. ولكن هذه البساطة في طريقها إلى الزوال إن لم تكن زالت بالفعل. ودب الاختلاف بين رهائن الموت في فهم معنى خصمهم، وفهم حقيقته. ومن المناسب الالتفات إلى أن البحث عن تعريف الموت لم يُعْد بحثاً فلسفياً لا يعني إلا المتخصصين من الفلسفه أو فارغى البال، بل تحول إلى موضوع من موضوعات الطب الحديث الذي يطمح إلى التحكّم بتوفيق الموت، ولو بشكل جزئي بحسب ما أوتي الأطباء من حول وقوه. وللموت

في الطب تعريفات مختلفة يترتب على اختلافها آثار عدّة. مثلاً بعد أن تطورت قدرة الطب على استبدال قلب الإنسان ولو بآلية تؤدي الدور نفسه تقريباً، لم يعد كافياً القول: إن الموت يُعرف بتوقف القلب عن العمل. وصار من اللازم البحث عن تعريف آخر للموت اهتدى الأطباء إليه بعد بطلان الأول، وانقلب مؤشر الموت من القلب إلى الدماغ. وانطلاقاً من هذه النقطة وغيرها من نقاط الاختلاف تسمح بعض القوانين بما يسمى بـ«القتل الرحيم». وأخطر ما في الأمر دعوة بعض الأطباء إلى السماح للمرضى باختيار تعريفهم للموت لتترتب الآثار على هذا التعريف: الأمر الذي يجعل الموت أمراً شخصياً ربما يحول حالات الانتحار إلى حق من حقوق الإنسان يُضم إلى شرعة الحقوق العالمية.

وقد بدأت بعض المؤسسات بمحاولة فهم الموت من خلال ما يطلقون عليه «تجربة الاقتراب من الموت» (Near Death Experience)، وتوجد جمعية دولية متخصصة تهتم بدراسة شهادات الأشخاص الذين مرروا بتجارب من هذا النوع. وفيها يتحدث بعضهم عن إحساس بالفراغ المهوو، والظلمة المرعبة التي مرروا بها أثناء تلك التجربة، ثم تحولت هذه الظلمة إلى نور رحيم حاضن ولقاءات مع بعض الأصدقاء الذين سبقوا إلى الموت أو سبق إليهم، ومعرفة ببعض الأحداث قبل وقوعها ومن بين هؤلاء من يتحدث منذ عام ١٩٨٤ عن معرفته بأحداث الحادى عشر من أيلول التي شهدتها أميركا، وعن فرح غامر لا يشعر به المرء في الدنيا. وعلى الرغم من عدم ميلي إلى تصديق هذه الشهادات بسهولة، إلا أنها ذكرتني بعدد من الآيات الكريمة منها: «وَلَا تَحْسِنَ إِلَيْنَا قُتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَخْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ هُوَ فَرِحٌ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشُرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحِظُوا بِهِمْ مَنْ خَلَفُوهُمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ هُوَ يَسْتَبِشُرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيئُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٦).

وعلى أي حال، يبقى الموت سراً عصياً على الفهم، إلا من يمر بالتجربة الكاملة فربما لا تكون تجارب الاقتراب من الموت إلا اقتربا لا معاينة. ومن هنا لا يسعنا إلا عدم تصديق المثل العربي القائل: «إن لم تمت فقد رأيت من مات»، فشتان بين من شاهد الموتى وبين من شاهد الموت.

ولكن استعصاء الموت على الفهم لا يعيينا من العودة إلى السؤال: لماذا يخشى الإنسان الموت؟ ربما يبدو هذا السؤال أقرب إلى الحل من محاولة فهم الموت نفسه، فعندما نتحدث عن خشية الإنسان من الموت، نكون بصدق الحديث عن حالة شعورية لها مناشئ عدّة يسهل البحث عنها والعنور على بعضها على الأقل.

فمن الناس من يخشى الموت؛ لأنه يراه عدماً، وفناً لا عودة بعده إلى الحياة من جديد. ومنهم يخشى الموت لجهله بما يحصل أشلاءه وبعده وفيه، ومنهم من يخشاه لأنسه بالحياة الدنيا وإلفته إياها، أو لغير ذلك من الأسباب. وكى لا نشهد الإنسان على نفسه أو لها، يحسن بنا العودة إلى القرآن الكريم لنستفتيه في سبب رغبة الإنسان بالفرار من الموت ولو إلى أجل مسمى.

أسباب خشية الموت في القرآن:

في القرآن آيات عدة يمكن أن تهدي الإنسان إلى دافع خشية الموت عند الإنسان يمكن أن نكتفي بالإشارة إلى بعضها:

- عدم اليقين بالخلاص: يقول الله سبحانه وتعالى: **«قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أُولَئِكَ لَهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ◁ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبْدًا بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»**^(١) ، تشير هاتان الآيتان إلى عدم الاعتقاد الجازم بالخلاص في الدار الآخرة، ولا بخلوصها للمدعين ذلك، ولإثبات عدم صدق الدعوى يأمرهم الله بتمني الموت ولو باللسان ولكنه يلزم بأنهم لا يتمنونه أبداً.

- المعاشي: كما تشير الآية إلى المعنى المذكور أعلاه تشير أيضاً إلى أن علم الإنسان بما قدمت يداه في الدنيا والعقوبة التي تتنتظره على ما قدم يدعوانه إلى الرغبة في تأجيل الموت أو الفرار منه.

- التسويف: التسويف وتتأجيل ما ينبغي التعجيل به، من الأسباب التي تدعو الإنسان إلى السعي في تأجيل الموت إن أمكن لتدارك ما فات، وذلك قوله تعالى: **«وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخْرَجْتَنِي إِلَى أَجَلِ قَرِيبٍ فَأَصْدِقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»**^(٢).

- الأنس بالدنيا: الأنس بالدنيا وغرورها من الأسباب الداعية إلى خشية الموت، حيث يقول الله تعالى: **«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِزَّ عَنِ النَّارِ وَأَذْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفَرُورُ»**^(٣).

- الخوف من العدم: يعتقد كثير من الناس بأن الموت هو نهاية المطاف وقد كان التأكيد على البعث والعودة إلى الحياة بعد الموت واحداً من الآمال التي

أحياناً الدين في نفوس بني البشر. ولا يخفى ما للاعتقاد بالعودة إلى الحياة والحساب بعد الموت من أثر على سلوك الإنسان ونظرته إلى الحياة والموت نفسه. ولا شك في أن من يرى في الموت نهاية وغاية لا غاية بعدها، سوف يخشى الوصول إلى تلك الغاية، ويجهد نفسه في السعي لتجنبها؛ يقول الله سبحانه: «وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمْوَتْ بَلَى وَغَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(١٢).

قبل الختام:

إذا كانت هذه هي الأسباب التي تدعو الإنسان إلى خشية الموت، فإن أفضل من يساهم في رفع قلق الموت أو التخفيف منه على الأقل، هو الدين؛ لأنّه يؤسس عند الإنسان فكرة العودة إلى حياة أفضل منها حيث فيها «...ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وأجمل ما فيها لقاء الله والفوز برضاه. وهو الذي يشير في المؤمن الإحساس بأنّ الدنيا سجن له وما هي إلا جنة الكافر، وهل لإنسان عاقل أن يرجع سجناً على جنة. وهو كذلك الذي يدعو الإنسان إلى العمل للأخرة وكأنّه ميت غداً، وأين التسويف عن مثل من يرى الموت ضيفه غداً أو هو ضيفه. ولا تحتاج إلى إثبات أنّ من يؤمن بعدل الله ورحمته ولا يقصر تسويفاً وتراجيلاً، ولا يبتلي بالمعاصي لا سراً ولا علانية، ويعتقد بأنه في سجنه ما دام مُخلداً إلى الأرض ملتقاً بدنياه، لا تحتاج إلى أن ثبت أنّ مثل هذا الشخص سوف يقبل على الموت وهو آنسٌ به من الطفل بشيء أمه، على حد تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وقد ينبع على ضفاف هذه الإشارات سؤال جاد يواجه الفكر الديني في رؤيته إلى الموت والحياة، وهو: ألا يحول الدين الذي يحمل هذه النظرة إلى إنسان موتٍ بدل أن يكون إنسان حياً؟

بلّى، ربما كان ذلك صحيحاً لو جرّأنا النّظرة واتخذنا القرآن عضيناً، وأما عندما يكتمل المشهد فتبعد الصورة مفاجيرة مطبوعة بالتوزن بين أطراها، فإنّ الدين الذي جمل الموت في عيون معتقليه، هو الذي جمل الحياة في عيونهم أيضاً، وهو الذي دعاهم إلى زرعها وتحويل حصادها إلى بيدر الآخرة، وهو أعلى شأن حياة الإنسان نفسها وأخر، عندما قرر أنّ من قتل نفسها كأنّما قتل الناس جميعاً. والله في تعليمه وتعاليمه أسرار تستحق أن تكتشف....

مع العدد:

لقد حاولنا في هذا العدد أن نقارب فكرة الموت ومفهومه، ضمن معالجات دينية وفلسفية وتاريخية مقارنة، وجل ما ندعيه هو شرف المحاولة، لا فخر الإتقان ولا تيه الإكمال، فلعل هذه المحاولات تتبعها أخرى تجلي الصورة وتكلّم المشهد، ولكن يبقى قول الشاعر: «وَمَا رَأَيْ كُمْنَ سَمِعَا»، مداعاة إلى اليأس والأمل في وقت واحد. وآخر دعوانا أن الحمد لله.

محمد حسن زراقط

مدير التحرير

الهوامش

- (١) سورة البقرة: الآية ٩٤
- (٢) سورة النساء: الآية ٧٨
- (٣) سورة المائدة: الآية ١٠٦
- (٤) سورة العنكبوت: الآية ٥٧
- (٥) سورة آل عمران: الآية ١٤٤
- (٦) سورة البقرة: الآية ١٣٣
- (٧) سورة البقرة: الآية ١٦٤
- (٨) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩-١٧١
- (٩) سورة الجمعة: الآيات ٦-٧
- (١٠) سورة المنافقون: الآية ١٠
- (١١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥
- (١٢) سورة النحل: الآية ٣٨